الفصل الأول

معرفـة الله والنبوة

معرفة الله تعالى

الطريق إلى معرفة الله

تبدو مسألة معرفة الله تعالى، كما وردت في بعض الآيات والآثار، للوهلة الأولى. صعبه الفهم. فقد ورد أن كل شيء يُعرف بالله، أما الله فيُعرف بنفسه، بل تحتوي الروايات على عبارة دَالَّةٍ تقول: «كُلُّ معروفٍ بغيره، مصنوعٌ» أيّ أن كل شيء لا يُعرف إلا بواسطة غيره فهو مخلوق، وليس بخالق. وهذا تعبير عجيب أن يُقال: «يُعرف الله بنفسه، وما سواه يُعرف به». بينما نحن نفكر بطريقة مختلفة إذ نتصور أن طريق معرفة الله -عزّ وجلّ- منحصر بالفكرة القائلة بأننا نعرف المخلوق بواسطة المخلوق، ونعرف الله أيضاً بواسطة المخلوق. حتى أن بعض الكتّاب الإسلاميين ـ ابتدأ من المصريين ثم سرى إلى غيرهم ـ قالوا إن طريق معرفة الله تنحصر أساساً في المخلوقات، والله يُعرف عن طريق مخلوقاته، أيّ ينبغي معرفة الخالق بعد معرفة المخلوق. وقد نسب بعضُهم فكرة انحصار طريق معرفة الله، إلى القرآن الكريم. ولا شك أن فكرة حصر الطريق في هذا أمر خاطئ. ولكنها ليست كذلك بالنسبة للمبتدئين، أيّ إن طريق تذكير المبتدئين بالله هو هذا في المرحلة الأولى، حيث نجد القرآن نفسه قد أشار إلى ذلك إذ اعتبر المخلوقات آيّات وعلامات تدل على الله. إلا أن هذا الطريق يعطي للإنسان مجرّد علامّة إجمالية وغامضة عن الله دون التوصل الكامل إلى ما نسمّيه «معرفة الله»[1][2].

---

(1) المصادر المطبوعة لمرتضى مطهري أكثرها منشور بالفارسية عبر دار صدرا (طهران). وبعض هذه الكتب مترجم إلى العربية أيضاً، العنوان المترجم إلى العربية في =

الأطفال... والمفهوم الخاطئ عن التوحيد

إن الملاحظ في بعض التعاليم الدينية -والموجود عندنا أيضاً مع الأسف- هو شيوع المفهوم الخاطئ عن الله الذي يتم تلقينه للأطفال منذ مرحلة الصبا. وعندما يكبر الطفل ويصبح عالماً يكتشف أن هذا المفهوم غير منطقي ولا يقبله العقل، سواء أكان الأمر يتعلق بذات الله تعالى أم بغيره. وبعد أن يكبر الطفل ينكر الإله الذي تَعلّمه أساساً دون أن يفكر في إمكانية تصور مفهوم صحيح للإله. وهو يتصور أن الإله الذي يرفض الإيمان به هو نفس الإله الذي يؤمن به الموحِّدون. فهو يرفض الإيمان بالله لأنه يرفض الإيمان بما تكوَّن في تصوره بفعل الأوهام العامية، لكنه لا يدرك أن المفهوم الذي يرفضه إنما يرفضه الموحدون أيضاً، وأن إنكاره هذا ليس إنكاراً لله تعالى بل هو إنكار لإله غير الله وهو ما يجب إنكاره.

يقول «فلاماريون» في كتاب «الله في الطبيعة»: كانت الكنيسة تصوِّر الله بهذه الصورة «تبلغ المسافة بين عينه اليمنى وعينه اليسرى ستة آلاف فرسخ» وكان طبيعيّاً أن لا يستطيع الأفراد المتعلمون ـ ولو في مستويات بسيطة ـ أن يعتقدوا بمثل هذا الموجود[3].

= الهوامش بين معقوفتين ليس دليلاً على ترجمة الكتاب، إنما وُضعت ترجمة العناوين لتقريب القارئ العربي إلى محتواها.

(2) مطهري، آشنايى با قرآن [التعرف على القرآن]، ص112-113.

(3) مطهري، ولإها وولايتها [الولاء والولاية]، ص68-69.

النبــوّة

دور الإنسان في المعجزة

يدّعي البعض أن شخصية صاحب المعجزة وإرادته ليس لهما أيّ تأثير في اجتراح المعجزة، بل هو مجرد صفحة لعرضها، وأن الله يوجد المعجزة مباشرة ودون أيّة واسطة، ذلك لأن الأمر إذا وصل إلى حدّ الإعجاز فإنه يخرج عن حدود طاقات الإنسان أيّاً كان. إذاً، حينما تقع المعجزة، لا يتصرف أيّ إنسان في الكائنات، بل هو الله الواحد الذي يتصرف مباشرة في الكائنات ودون تدخّل إرادة الإنسان.

وهذا أيضاً تصور خاطئ، فعلاوة على أن الذات الإلهية المقدسة تأبى أن يصدر فعل طبيعي دون واسطة وخارجاً عن دائرة النظام، فهو تصور يخالف القرآن الكريم. فالقرآن يذكر بصراحة تأمّة أن الرسل هم الذين يأتون بـ«الآية»[1] (المعجزة) ولكن بإذن الله، دون شك. وبديهي أن «إذن الله» ليس من نوع الإذن الاعتباري والبشري الذي يرفع المنع الأخلاقي أو الاجتماعي عن الشيء باللفظ أو الإشارة، بل إذن الله هو منح نوع من الكمال الذي يكون مصدراً لهذه الآثار [المعجزات] وإن لم يشأ الله فإنه يسلب ذلك الكمال.

---

(1) يشير المؤلف إلى الآية 38 من سورة الرعد التي جاء فيها: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والتي تكررت في الآية 78 من سورة غافر أيضاً. وإلى الآية 11 من سورة إبراهيم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وإلى الآية 110 من سورة المائدة التي جاء فيها مخاطباً عيسى بن مريم (ع): ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾.

ختم النبوّة أم نهاية الدين؟

رغم ما يتحلى به المفكر الإسلامي محمد إقبال اللاهوري من دقة العرض والتحليل في القضايا الإسلامية، وهو أمر أفدنا منه كثيراً في كتابنا هذا والكتب الأخرى، إلا أنه وقع في خطأ كبير في مسألة تحليل وتفسير فلسفة ختم النبوّة وتفسيرها، فقد بنى حديثه في هذا المجال على عدة مبادئ:

1 ـ الوحي، الذي يعني في اللغة «الكلام الخفيّ والنجوى» والذي يتسع مفهومه في القرآن ليشمل أنواع الهداية الرمزية بدءًا من هداية الجماد والنبات والحيوان وانتهاءً بهداية الإنسان بواسطة الوحي. يقول إقبال:

> «إن هذا الاتصال بجذر الوجود ليس خاصّاً بالإنسان إطلاقاً، فكيفية استخدام كلمة الوحي في القرآن تدل على أن هذا الكتاب يعتبر الوحي من خصائص الحياة، وبالطبع فإن شكله يختلف حسب مراحل تكامل الحياة. فالنبات الذي ينمو بحرية في مكانٍ مّا، والحيوان الذي يمتلك عضواً جديداً للتكيّف مع البيئة الحياتية الجديدة، والإنسان الذي يتلقى من الاعماق الباطنية للحياة نوراً جديداً، كل تلك هي مظاهر مختلفة للوحي تأخذ أشكالاً متنوّعة حسب طاقة استقبال الوحي، أو حسب الضرورات النوعية التي ترتبط بها هذه الطاقة»[2].

2 ـ الوحي هو شيء كالغريزة، وهداية الوحي هي شيء من نوع الهداية الغريزية.

3 ـ الوحي هو هداية الإنسان من الزاوية الجماعية، أيّ أن المجتمع الإنساني، من حيث أنه وحدة واحدة له طريق ومسيرة وقوانين حركية، يحتاج إلى الهداية. والنبيّ هو الجهاز اللاقط الذي يلتقط بشكل غريزي كل ما يحتاج إليه الإنسان. يقول إقبال:

> «إن الحياة الكونية تشاهد حاجاتها بصورة إشراقية، وتحدد إمتداد واتجاه

(2) محمد إقبال «إحياء فكر دينى در غسلام» [تجديد الفكر الديني في الإسلام]، ص144-145.

حركتها في لحظة متأزّمة. وهذا هو ما نطلق عليه في لغة الدين نزول الوحي إلى النبيّ»[3].

4 ـ تهتدي الأحياء في مراحلها الأولى بواسطة الغريزة، وكلما ارتقت سُلّم التكامل، ونمت فيها قوة الشعور والتصور والفكر، تتضاءل قوة الغريزة، وفي الحقيقة يحتل الشعور والفكر مكان الغريزة. من هنا فإن الحشرات تمتلك أكثر الغرائز وأقواها بينما يمتلك الإنسان أقلها.

5 ـ يقطع المجتمع الإنساني من النظرة الاجتماعية مسيرة تكاملية، وكما كانت الحيوانات في المراحل البدائية تحتاج إلى الغريزة، وقد احتلت الهداية الشعورية والفكرية تدريجيّاً وكلما نمت فيها قوى الشعور والتصور، والتفكير أحياناً، مكان الهداية الغريزية، فكذلك المجتمع الإنساني، فقد توصل عبر مسيرته التكاملية شيئاً فشيئاً إلى حيث نمت فيه قوة التعقل. وكان هذا سبباً في ضعف الغريزة (الوحي). يقول إقبال:

«في مرحلة طفولة البشرية تكشف الطاقة النفسية عن شيء أُطلق عليه «الوعي الذاتيّ النبويّ» الذي يتم بواسطته التقشف في استخدام التفكير الفردي واختيار مسيرة الحياة، وذلك عن طريق اتباع التعاليم والأحكام والخيارات والمناهج العملية الجاهزة. ولكن بولادة العقل والقدرة على النقد، فإن الحياة تُوقِف ـ لمصلحتها ـ تشكيل ونموّ تلك الصور من الوعي الذاتي التي كانت الطاقة النفسية في المراحل الأقدم من التكامل البشري تتبلور في إطارها. ففي البدء يكون الإنسان تحت قيادة الشهوة والغريزة، ثم يتحقق التكامل والتقدم في إطار العقل البرهاني الذي يشكّل لوحده عامل هيمنة على البيئة، وإذا وُلد العقل وجب دعمه بمنع الأشكال الأخرى من المعرفة (الهدايات والمعارف الغريزية)»[4].

6 ـ لعالم البشرية مرحلتان أساسيتان: مرحلة هداية الوحي، ومرحلة هداية

(3) المصدر السابق، ص168.
(4) المصدر السابق، ص145.

التعقّل والتفكر في الطبيعة والتاريخ. وبالرغم من أن العالم القديم شهد عدداً من المدارس الفلسفية (كاليونانية والرومانية) إلا أنها لم تكن ذات قيمة تذكر، وكانت البشرية لا تزال تمر بمرحلة الطفولة. يقول إقبال:

«لا شك في أن العالم القديم، حيث كان الإنسان -بالقياس إلى الزمن المعاصر- يعيش حالة بدائية وكان إلى حدٍّ مّا يقع تحت قيادة الإيحاء، أوجد عدداً من المنظومات الفلسفية الكبيرة. ولكن لا ننسى أن هذه المنظومات في العالم القديم جاءت نتيجة الفكر المجرد الذي لم يكن بمقدوره الذهاب أبعد من تصنيفات المعتقدات الدينية الغامضة والتقاليد، إلا أن تلك الفلسفات لم توفر لنا ما يمكن الاعتماد عليه في مجال أوضاع الحياة الواقعية»[5].

7 ـ إن الرسول الكريم ﷺ الذي خُتمت به النبوّة ينتمي إلى العالم القديم والعالم الجديد أيضاً. فهو ينتمي إلى العالم القديم من حيث أن الوحي، وليس البحث التجريبي في الطبيعة والتاريخ، يشكل مصدر الالهام بالنسبة إليه، وينتمي إلى العالم الجديد من حيث الروح التي تهيمن على تعاليمه والتي تدعو إلى التفكير والتعقل والبحث في الطبيعة والتاريخ. وبولادة هذه الأمور فإن دور الوحي ينتهي. يقول إقبال:

«وإذا نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية يجب القول إنه، وكما يبدو، يقف الرسول الكريم ﷺ بين العالم القديم والعالم الجديد. فمن جهة مصدر الإلهام بالنسبة إليه فهو يرتبط بالعالم القديم، ولكن حينما يكون الدور لروح الإلهام عنده فهو يرتبط بالعالم الجديد. فالحياة تكتشف فيه مصادر أُخرى للمعرفة[6] هي جديرة بمسيرتها الجديدة. إن ظهور وولادة الإسلام هو ظهور وولادة العقل البرهاني الاستقرائي، فالرسالة بظهور الإسلام تصل إلى درجة الكمال وذلك بسبب اكتشاف ضرورة انتهاء الرسالة نفسها، وهذا الأمر يتطلب فهماً ذكيّاً لأن الحياة لا تستطيع أن تظل دائماً في مرحلة الطفولة ومرحلة القيادة من الخارج. إن إلغاء الكهانة والحكم الوراثي في الإسلام،

(5) المصدر السابق.

(6) المعرفة عن طريق دراسة الطبيعة والتاريخ.

والتركيز المتواصل على العقل والتجربة في القرآن، والاهتمام الذي يوليه هذا الكتاب المبين للطبيعة والتاريخ باعتبارهما مصدرين للمعرفة البشرية، كل تلك هي مظاهر مختلفة لفكرة واحدة تؤكد على ختم مرحلة الرسالة»[7].

كانت هذه أركان فلسفة ختم النبوّة ومبادئها من وجهة نظر العلامة إقبال. ولكنها فلسفة قابلة للنقد، ناهيك عن أن كثيراً من مبادئها خاطئ.

الإشكال الأول هو أنه لو صحت هذه الفلسفة، فلا تنتفي الحاجة إلى وحي جديد، ورسول جديد فحسب، بل تنتفي الحاجة أصلاً إلى إرشاد الوحي، لأن هداية العقل التجريبي تقوم مقام هداية الوحي. وإذا صحت هذه الفلسفة، فهي فلسفة ختم الدين وليس ختم النبوّة، وعلى هذا فإن مهمة الوحي الإسلامي تكون الإعلان عن نهاية مرحلة الدين وبداية مرحلة العقل والعلم فقط. وهذا الموضوع لا يخالف ضرورات الإسلام فحسب، بل يخالف نظرية إقبال نفسه. فكل جهود إقبال ومساعيه تصب في أن العلم والعقل ضروريان للمجتمع البشري إلا أنهما لا يكفيان. فالإنسان يحتاج إلى الدين والإيمان الديني بمقدار حاجته إلى العلم. ويصرح إقبال بأن الحياة تحتاج إلى أصول ثابتة وفروع متغيرة، وأن مهمة «الاجتهاد الإسلامي» هي كشف مدى إنطباق الفروع على الأصول. يقول إقبال:

«إن هذه الثقافة الجديدة [أي الثقافة الإسلامية] أقامت وحدة العالم على أساس التوحيد، فالإسلام، باعتباره نظاماً حكوميّاً، وسيلة عملية لوضع مبدأ التوحيد كعامل حيوي في الحياة العقلية والعاطفية للإنسان. الإسلام يؤكد على الولاء لله وليس الولاء للحكم الاستبدادي، ولأن الله هو الأساس الروحي النهائي لكل حياة فإن الولاء لله هو عمليّاً ولاء للطبيعة المثالية لذات الإنسان. فالمجتمع الذي يقوم على أساس هذا التصور عن الواقع، يجب عليه أن يكيِّف في حياته بين موضوعي «الأبدية» و«التغيير». يجب أن يمتلك مبادئ أبدية [أي مبادئ ثابتة] لتنظيم حياته الاجتماعية. ذلك لان ما

(7) المصدر السابق، ص146.

هو أبدي ودائم يعزّز مواقع أقدامنا في هذا العالم المتغير على الدوام. ولكن إذا فُهمت المبادئ الأبدية على أنها تتعارض مع كل تغيير، أيّ تتعارض مع ما يعتبره القرآن من أكبر «آيات» الله، فعندها يتسبب هذا الفهم في منع ما هو متحرك ذاتيّاً عن الحركة. إن فشل أوروبا في العلوم السياسية والاجتماعية يجسّد المبدأ الأول،[8] وتوقّف حركة الإسلام خلال القرون الخمسة الأخيرة يجسّد المبدأ الثاني[9]. فما هو أساس الحركة في الإسلام؟ إنه المبدأ الذي نسمّيه «الاجتهاد»[10].

وفقاً للكلام المذكور، فإن الحاجة إلى الوحي باقية إلى الأبد، ولا تستطيع هداية العقل التجريبي أن تحل محل هداية الوحي. وإقبال نفسه يؤكد مائة بالمائة على بقاء الحاجة إلى الدليل أبداً، بينما الفلسفة التي يذكرها لختم النبوّة لا تستلزم عدم الحاجة إلى وحي جديد ورسالة جديدة فحسب، بل وأيضاً عدم الحاجة إلى إرشاد وهداية الوحي، وفي الحقيقة لا تُختم النبوّة فقط بل ينتهي دور الدين أيضاً.

إن هذا التفسير الخاطئ الذي يسوقه إقبال لختم النبوّة تسبب في استنتاج خاطئ من كلماته حيث يتصور البعض أن مرحلة ختم النبوّة تعني مرحلة إستقلال الإنسان عن الوحي، فحاجة البشر إلى هداية الأنبيّاء وتعليمهم وتربيتهم، هي من نوع حاجة الطفل لمعلم المدرسة. فالطفل يرتقي كل عام إلى مرحلة دراسية أعلى ويتغير مُعَلِّمُه، والإنسان كذلك، ينتقل بين فترة وأخرى إلى مرحلة متقدمة ويتغير بذلك قانونه وشريعته. وكما يصل الطفل إلى المرحلة الدراسية النهائية ويحصل على شهادة التخرج ويستقل بعد ذلك عن المعلّم والمدرّس في مباشرة البحث والتحقيق، كذلك البشرية في مرحلة ختم النبوّة تحصل على شهادة التخرج والاستغناء عن الدراسة الكلاسيكية بإعلان هذه الخاتمية، ويبادر الإنسان شخصيّاً بالبحث في الطبيعة والتاريخ،

(8) إنكار أيّ مبدأ أبدي، وإنكار خلود الأسس الأصلية للحياة.
(9) إنكار مبدأ التغيير والاعتقاد بالخلود.
(10) المصدر السابق، ص168-169.

وهذا هو معنى «الاجتهاد». إذن، فختم النبوّة يعني وصول البشر إلى «الاكتفاء الذاتي».

ولا شك أن هذا التفسير لختم النبوّة تفسير خاطئ. بل إن ما يترتب عليه من نتائج لا تقع موقع القبول لا من طرف إقبال نفسه، ولا من طرف الذين يستنتجون هذه النتائج من كلامه.

الإشكال الثاني هو أنه لو صحّت نظرية إقبال فإن ما يسميه هو «التجربة الباطنية» (أي مكاشفات أولياء الله) يجب أن تنتهي وتتوقف أيضاً بولادة العقل التجريبي، ذلك لأن المفروض هو أن هذه الأمور هي من فصيلة الغرائز، وبظهور العقل التجريبي فإن دور الغريزة التي هي مرشد من الخارج يتضاءل، بينما يصرّح إقبال نفسه بأن التجربة الباطنية باقية إلى الأبد، وأن التجربة الباطنية هي حسب النظرة الإسلامية واحدة من المصادر الثلاثة للمعرفة[11]. فلإقبال شخصيّاً ميول عرفانية شديدة وهو يؤمن بقوة بالإلهامات المعنوية.

يقول إقبال:

> «ولا تعني هذه الفكرة أن «التجربة الباطنية» التي لا تختلف من حيث الكيفية عن «التجربة النَّبَويّة» قد انقطعت وتوقفت الآن من حيث أنها واقع حياتي. فالقرآن يعتبر «الأنفس» و«الآفاق» مصادرَ العلم والمعرفة. والله يكشف عن آياته في التجربة الباطنية وفي التجربة الخارجية في الوقت نفسه، ووظيفة الإنسان هي أن يجعل معرفية كل وجوه وصور التجربة في معرض التحكيم. وينبغي أن لا نأخذ فكرة الخاتمية بمعنى أن المصير النهائي للحياة هو خلافة العقل للعاطفة بشكل كامل، فهذا الأمر ليس ممكناً ولا مطلوباً. إن القيمة العقلية لهذه الفكرة تكمن في أنها تُوجِد بإزاء التجربة الباطنية وضعاً مستقلاً ناقداً، ويحصل هذا مع ولادة الاعتقاد بنهاية حُجّية زعم الأشخاص بارتباطهم بما وراء الطبيعة، في تاريخ البشرية... بناءً عليه فإنه ينبغي الآن

(11) والطبيعة والتاريخ هما المصدران الآخران.

النظر إلى التجربة الباطنية مهما كانت غير عادية وغير معروفة، تماماً كما ننظر إلى أيّة تجربة طبيعية، وإخضاعها كسائر أشكال التجارب البشرية الأخرى للنقد والدراسة والتحليل»[12].

ويقصد إقبال من الفقرة الأخيرة من كلامه أن إلهامات أولياء الله ومكاشفاتهم وكراماتهم لم تنته بانتهاء النبوّة وختمها، إلا أن حجيتها واعتبارها السابق قد انتهى. ففي السابق، وقبل ولادة العقل التجريبي، كانت المعجزات والكرامات تُعدُّ وثائق طبيعية ومقبولة وغير قابلة للتشكيك، إلا أن هذه الأمور لا حجية لها بالنسبة للإنسان الناضج والبالغ درجة الكمال العقلي (إنسان مرحلة الخاتمية)، وينبغي كأية ظاهرة أخرى أن تخضع للتجربة العقلية. فعصر ما قبل ختم النبوّة كان عصر المعجزات والكرامات، أي كانت هذه الخوارق تبسط هيمنتها على العقول. ولكن عصر خَتْم النبوّة هو عصر العقل، والعقل لا يستدل على شيء بمجرد مشاهدة إحدى الكرامات إلا أن يقوم هو بالكشف بواسطة الإلهام عن سلامتها واعتبارها حقيقة مكشوفة طبقاً لمعاييره هو.

هذا القسم من كلام إقبال قابل للنقد هو الآخر سواء من حيث مرحلة ما قبل ختم النبوّة أو من حيث مرحلة ما بعد ختم النبوّة. وهذا ما سنبحثه فيما بعد.

الإشكال الثالث هو أن إقبال يعتبر الوحي من نوع الغريزة وهذا أمر خاطئ. وقد أدى هذا إلى بروز أخطائه الأخرى. فالغريزة ـ كما يعرف إقبال نفسه ـ هي أمر طبيعي مائة بالمائة (أي غير اكتسابي) ولاشعوري، وهي أدنى درجةً من الإحساس والعقل، وقد وضعها قانون الخليقة في المراحل الأولى من الحياة الحيوانية (الحشرات والأدنى منها) في الحيوانات. وبنموّ وتطوّر الهدايات الأسمى درجة (كالإحساس والعقل) فإن الغريزة تضعف وتخمد. ولذلك فإن الإنسان الذي يعتبر من أغنى الأحياء من حيث منظومة الفكر والعقل، فهو أضعفها من حيث الغريزة.

أما الوحي، فعلى العكس من ذلك، هو هداية أعلى من الإحساس

(12) المصدر السابق، ص146-147.

والعقل، إضافة إلى أنه إكتسابي إلى حدٍّ مّا، والأهم هو أنه في أعلى درجات «الوعي». وهذه الجهة في الوحي هي أعلى من الإحساس والعقل بدرجات لا يمكن وصفها، وإن المجالات التي يتم كشفها بواسطة الوحي، هي أعرض وأوسع وأعمق من المجالات التي باستطاعة العقل التجريبي اكتشافها.

لقد أثبتنا في بحوثنا السابقة أنه نظراً إلى مجموع الإمكانيات الفردية والاجتماعية للإنسان، وتداخل العلاقات الاجتماعية، وعدم تحديد نهاية المسيرة التكاملية للإنسان، يجب علينا القبول بأن ما نسجه الفلاسفة والمفكرون الاجتماعيون باسْم الإيديولوجيا ليس هو إلا الضلال والحيرة. فليس أمام الإنسان من حيث امتلاك الإيديولوجيا إلا طريق واحد وهو الإيديولوجيا عن طريق الوحي، وإذا لم نقبل بالإيديولوجيا عن طريق الوحي فعلينا أن نسلِّم بأن الإنسان يفقد الإيديولوجيا (العقيدة).

إن المفكرين المعاصرين يعترفون بأن تحديد المسيرة المستقبلية للإنسان بواسطة الإيديولوجيات البشرية إنما هو ممكن إذا قدّم على مرحلة مرحلة فقط، أيّ أننا ـ حسب زعم هؤلاء ـ نستطيع في أيّة مرحلة أن نحدد معالم المرحلة التالية، أما ما هي المراحل الأخرى بعدها وما هي المرحلة النهائية؟ هل هناك - من الأساس - مرحلة نهائية أم لا؟ فكل ذلك غير معلوم لنا. وواضح ماذا يكون مصير هذه الإيديولوجيات.

ولَيْتَ العلامة إقبال الذي كانت له اهتمامات بكتب وآثار العرفاء [المتصوّفة] وخاصة بأشعار جلال الدين الرومي، تعمق أكثر في تلك الآثار حتى يصل إلى تحديد أفضل لنظرية ختم النبوّة، لقد توصّل العرفاء إلى أن السبب في ختم النبوّة هو أن جميع المراحل الفردية والاجتماعية للإنسان، والطريق الذي يجب أن يسلكه الإنسان قد انكشفت جميعها مرّة واحدة، فكل ما يناله البشر بعد ذلك، لا يكون أكثر منه. إذن فلا بد له من الاتباع. يقول العرفاء: «الخاتم من ختم المراتب بأسرها». فهذا هو ميزان خَتْم النبوّة وفلسفتها، وليس نموّ العقل التجريبي للمجتمع. لو كان إقبال قد دقق النظر وتعمق أكثر فأكثر في آثار وأشعار من يميل إليهم (من قَبيل الشاعر الرومي) لعَلِمَ أن

الوحي ليس من نوع الغريزة. إنه روح وحياة أرفع مرتبة من الروح والحياة العقلية[13].

الإشكال الرابع، كأنّ العلامة إقبال وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه العالَم الغربي، أيّ جعل العلم في مكان الإيمان. وبالطبع فإن إقبال يعارض بشدة نظرية استبدال العلم بالإيمان، ولكن الطريق الذي سلكه في فلسفة ختم النبوّة ينتهي به إلى هذه النتيجة. فإقبال يعرِّف الوحي بأنه نوع من الغريزة، ويزعم بأن دور الغريزة ينتهي عندما يبدأ جهاز العقل والفكر بالعمل، إذ تنطفئ الغريزة عندها. ولكننا لو افترضنا بأن الغريزة لها وظيفة معَيّنة، ولجهاز العقل والفكر وظيفة أخرى، فليس هناك ما يدعو لتوقّف الغريزة عن العمل عندما يبدأ دور العقل والفكر، فإذا اعتبرنا ـ فرضاً ـ أن الوحي نوع من الغريزة التي مهمتها عرض نوع من الرؤية الكونية والإيديولوجيا التي لا يقدر العقل والفكر عليها، فليس هناك ما يدعو لتوقف عمل الغريزة بسبب نموّ العقل البرهانيّ والاستقرائيّ (حسب قول العلامة إقبال).

حقيقة الأمر هي أن العلامة إقبال، ورغم كل بروزه ونبوغه وتوجهه القلبي من أجل الإسلام، كان يقع أحياناً في أخطاء فظيعة ولعل السبب في ذلك أن ثقافته الأصلية إنما كانت ثقافة غربية، وأن الثقافة الإسلامية كانت تشكل الثقافة الثانوية بالنسبة له، أيّ أن دراسته كانت في الحقول الغربية، بينما كانت له بعض المطالعات فقط في الثقافة الإسلامية خاصة الفقه والعرفان والقليل من الفلسفة. وقد أشرنا في مقدمة الجزء الخامس من كتاب «أصول فلسفه وروش رئاليسم» إلى عدم نضج أفكار إقبال في المسائل الفلسفية العميقة.

لهذا السبب فإن مقارنته بالسيد جمال الدين الأفغاني ليست سليمة، فعلاوة على أن السيد الأفغاني لا يقبل مقارنته بإقبال من جهة النبوغ الشخصي، فهو خلافاً للثاني كانت ثقافته الأولى والأصلية هي الثقافة الإسلامية بينما كانت الثقافة الغربية ثقافته الثانوية. أضف إلى ذلك أن السيد جمال الدين وبسبب

(13) يستشهد المؤلف هنا بعدد من أبيات شعرية للشاعر جلال الدين الرومي حول الوحي وتفسيره.

أسفاره الكثيرة إلى البلاد الإسلامية وتعرفه على التيارات العاملة فيها عن كثب، كان على وعي بأوضاع البلاد الإسلامية أكثر من إقبال، ولذلك فهو لم يقع إطلاقاً في الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها إقبال في مجال معرفة التيارات العاملة في بعض البلاد الإسلامية (كإيران وتركيا)[14].

دين واحد أم أديان متعددة؟

إن الفكرة التي شاعت مؤخراً بين المثقفين وأدعياء الاستنارة والتي تقول إن جميع الأديان السماوية وفي كل الأزمنة متساوية من حيث الاعتبار، ليست فكرة سليمة. صحيح أنه لا يوجد خلاف وصراع بين أنبياء الله تعالى، وأن الأنبيّاء جميعهم كانوا يدعون لهدف واحد وربّ واحد، فهم لم يُبعثوا لكي يفتتوا البشر إلى طوائف وجماعات متناقضة.

ولكن هذا لا يعني أن نعطي لعدد من الأديان حق الوجود في زمن واحد، ويكون من حق كل إنسان اختيار أيّ دين منها وفي أيّ زمن يريد. ولكن على العكس فإن هذا الكلام يعني أن على الإنسان أن يؤمن بجميع الأنبيّاء، وأن يعلم أن الأنبيّاء السابقين كانوا يبشرون بالأنبيّاء اللاحقين لهم وخاصة بخاتمهم وأفضلهم، وأن الأنبيّاء اللاحقين كانوا يصدّقون الأنبيّاء السابقين. إذن فإن نتيجة الإيمان بجميع الأنبيّاء هي التسليم لشريعة النبيّ الذي بُعث لذلك العصر، ويجب ـ بالطبع ـ في مرحلة ختم النبوّة العمل بآخر التعاليم التي وصلت إلينا من الله بواسطة آخر الأنبيّاء، وهذا هو ما يعنيه الإسلام، أيّ التسليم لله والقبول برسالات المبعوثين من قِبَله[15].

(14) مطهري، وحي ونبوت [الوحي والنبوة]، ص169-179.
(15) مطهري، عدل إلهي، [العدل الالهي]، ص296-297.